التأويل عند المعتزلة

مصادره ـ أدواته ـ وسائله ـ قضاياه

إعداد

د / مبروك عبدالعزيز عبدالسلام عبدالله

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر فرع المنصورة

١٤٢٢هـ

١٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

[سورة الأعراف آية ٥٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي من بعثه ربه متمما للنعمة ومكملا للدين وخاتما للنبيين والمرسلين وعلي آله وأصحابه وأتباعه إلي يوم الدين. وبعـد.

أهمية الموضوع:

في هذا الموضوع ـ التأويل عند المعتزلة مصادره، وأدواته، ووسائله، وقضاياه ـ قضية فكرية تستحق مزيدا من التأمل لأن الفكر الاعتزالي عموما و التأويل عندهم خصوصا لم يشأ الفكر الإسلام أن يثير أفكاره العميقة فقط ، وإنما اختار لها إطارا من الفكر يحميها عند أهل الحق الأشاعرة و الماتريدية وهذا يوحي بكثافة الفكر الاعتزالي وامتلاء الباحث به ، حتىٰ أملت عليه الأفكار الاعتزالية هذا النحو من التعبير الفكري دون غيره ـ التأويل عند المعتزلة مصادره ... ـ ولأن الفكر وحده هو الذي يستطيع أن يحمل عن إنسانه عبء تبليغ همومه الفكرية وأشواقه الإنسانية جميعا . علي نحو من التركيز المكثف الذي ينقل أعمق ما في هذا الفكر الاعتزالي ـ التأويل عند المعتزلة...– وليس معني ذلك أننا نقسر المتلقي علي التعامل مع الفكر الاعتزالي وحده من خلال توافقه أو تصادمه معه ، وليس فقط من خلال رؤيته أو الإلمام المحايد بمفرداته العامة .. مما يؤكد أننا لم نصل الي هذا الفكر المتميز الذي صدر عن المعتزلة إلا بعد أن تخطي الباحث الفكر السلفي المفرد والفكر "التيمي"[1] – المدعىٰ السلفية – الذي نتوافق معه عموما ونتصادم معه في قضية الصفات ... وفكر أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ الذي نتعامل معه بل ونعتبره الميزان الذي في أيدينا من خلال توافقه الدائم مع النصوص الشرعية .

وهذه هي الدائرة التي نستقر مع الفكر الإسلامي عند آخر مطافاتها ونعني أن: السلف رضي الله عنهم أجمعين : من مضي من صالحي الأمة بعد رسول الله صلي الله علية سلم ـ الصحابة التابعين وتابعيهم ـ وكانوا علي ما كان عليه الرسول صلي الله

[1] نسبة إلي ابن تيمية

عليه وسلم من الهدي والنور ، فهم عن الرسول صلي الله عليه وسلم قد أخذوا وبه صلي الله عليه سلم اقتدوا ، وبهديه صلي الله عليه التزموا ، وعنه صلي الله عليه وسلم نقلوا كل ما وصل الينا من ديننا لم يغيروا ، ولم يبدلوا ، ولم يفرطوا. وكان من أشرف معارفهم رضوان الله عليه أجمعين ما يتعلق منها بالله تعالى ووجوب تعظيمه وتنزيهه في أفعاله وصفاته قال تعالي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1] ومن بعد السلف تأتي طائفة أخرىٰ ـ بعد القرون الثلاثة ـ كان منهجهم هو منهج السلف ـ التفويض ـ فقد تمسكوا بهدي سلفهم وساروا علي نهجهم لم يحدثوا جديدا في أمرهم وإن كانوا قد قننوا منهجهم ـ التفويضي ـ وحددوا طريقتهم للسير عليها فهؤلاء لا يقال لهم سلف بل يقال سلفي وسلفيون نسبة إلي المتقدمين .

وقبل أن نلتقي بتحول البؤرة الفكرية من منهج السلف التفويضي الي منهج المؤولين ـ عند الاشاعرة والماتريدية ـ الذين حاولوا كشف الغطاء عن المعني المراد بمعونة العقل والآخرين المثبتين ـ ابن تيمية وجماعته ـ الذين فعلوا ذلك بمعونة اللغة.

من الحق أن نقول : لقد أعطي المؤولون للمثبتين حجمهم الحقيقي حين صوبوا سهمهم الرائش إلي ابن تيمية وجماعته فأصابوا منهم ما شاءوا .

ويؤكد مضمون هذا المقولة الأخيرة . ما نراه من أن أهل الحق هم الأشاعرة والماتريدية .

ولكن اذا كان المثبتون هم من هم في اتفاقهم مع الجميع سلفا وخلفا علي تنزيه الباري "جل و علا" .

فقد ظل المؤولون يعترفون لابن تيمية وجماعته بأن غايتهم نبيلة ـ تنزيه الباري جل وعلا ـ لكن ظلت الحركة النقدية عند المؤولين تؤكد أن ابن تيمية وجماعته أخطأوا في الوسيلة الموصلة لتلك الغاية.

ومن هنا فإننا لم نجد صعوبة في تبرير تقديم منهج التأويل عند المعتزلة لأنه يحتاج

[1] سورة الشورىٰ آية ١١

إلي علاجات في مصادر المعرفة وأدوات التأويل و وسائله وقضاياه وفي ثنايا البحث نعطي منهج أهل الحق مبررات مقبولة في هذا الصدد ـ علاج الفكر الإعتزالىٰ ـ ونعلل لتقديم منهج المعتزلة التأويلي وعلاجه من خلال منهج أهل الحق الذي يؤكد اقتداره البارز علي الإبداع الفكري في البناء العقدي بشكل لافت ومثير .

وقد يحتج بعض الباحثين الذين يدعون السلفية علي تقديم منهج المعتزلة ومعالجته بمنهج أهل الحق بقولهم :

لماذا كل هذه التوترات الفكرية وكل الاحتدامات العقلية بين الفريقين ـالمثبتين والمؤولين ـ مع امكان العودة الي تناغم رحب بين الفريقين من خلال المنهج التفويضي عند السلف الذين عن الرسول صلي الله عليه وسلم قد أخذوا وبه صلي الله عليه وسلم اقتدوا ... ويشترك الجميع في الاتفاق علي أن المنهج التفويضي للسلف الصالح هو المفرد ، وأنه أوثق المناهج وقد اتبعه الناس في هذا الوصف ـ منهج السلف الصالح ـ وأخذوه ولم يجتمع لمنهج ما أجمع لهذا المنهج وفي هذا الحكم إيماء الي اقتداره الفكري بوأه هذه الزعامة العقدية مع التسليم بتصادم هذه الزعامة مع الحس الديني بل العقدي في العصر الحديث ويؤكد العلامة ابن الجوزي هذا بقوله (التشبيه داء ، والتأويل دواؤه ، فإذا لم يوجد الداء فلا حاجة إلي استعمال الدواء)[1] ولقد أعطي الإمام الغزالي منهج التأويل حجمه الحقيقي في قوله (لما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا في الكف عن التأويل ، خيفة من تحريك الدواعي وتشويش القلوب ، فمن خالفهم في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة ، وألقي الشكوك في القلوب مع الاستغناء عنه ، فباء بالإثم ، أما الأن فقد فشا ذلك ، فالعذر في إظهار شيء من ذلك رجاء لإماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر، واللوم عن قائلة أقل)[2]

ولا يجب من حديثنا عن منهج التأويل إلا أن يكون اللوم عنا أقل وأن نضئ شمعة

---

[1] مجالس ابن الجوزي في المتشابه من الآيات القرآنية : للإمام الحافظ المفسر . جمال الدين أبىٰ فرج عبد الرحمن بن علىٰ بن محمد " ابن الجوزي " ص ١٧٠ ، ١٧١

[2] إلجام العوام. تأليف : الغزالي ص ٢٨ ، بهامش : الانسان الكامل .

واحدة ـ منهج التأويل عن المعتزلة ومعالجته عند أهل الحق ـ أجدىٰ من أن نمارس هواية لعن الظلام !!!

ونعترف بأن أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ بالذات كان محور التأويل عندهم لتطوير المنهج للرد علي المخالفين وغيرهم . ولو أن الإبداع الفكري وقف عند حد الاشتغال بماضية ـ عدم الاشتغال بما ليس تحته عمل ـ لوقف أهل التأويل عند منهج التفويض السلفي، ولكن يزاحمنا " رواد العقلانية فرسان الدفاع عن الإسلام "[1] بمنطق اليونان وفلسفته والعلم بأسرار اللغة العربية ... ومهما يكن من شيء فقد استطاع منهج أهل الحق أن يقدم لنا منهجا فكريا رائع الدلالات يحل تأزم موقف المعتزلة التأويلي ويضع له ضوابطه .

ونعترف بأننا قدمنا إلي موضوع بحثنا ـ التأويل عند المعتزلة مصادره... ـ وأخلصنا في معاناة القضية التي تفصل بين المعتزلة وأهل الحق وأجدنا نمتلك اقتدارنا علي احتواء التأويل الاعتزالي ... وما يجيش به من تأويلات لأننا نحكم وفي ايدينا الميزان منهج أهل الحق.

أسباب اختيار الموضوع

لابد من الاعتراف المأساوي بأن (المسلمين قد اختلفوا بعد نبيهم اختلافا كثيرا وكانت لهم مناهج مختلفة ومتباينة في فهم الكتاب والسنة ، مما جعل بعض المصلحين يرددون وما يزالون أن الإسلام فوق ذلك كله من آراء الفلاسفة ورهبانية الصوفية وجدل المتكلمين)[2] ومن هنا فقد تخلفت الوضعية النابعة في فهمنا لهذا الفكر الإسلامي أو تقويمنا له ؛ لأننا نجتر هذا الفهم وهذا التقويم من حناجر الآخرين وأقلامهم غابرين ومعاصرين !!

والفكر الإسلامي ـ بداهة ـ ليس مقاطعة للسلف الأقدمين . محظورا علينا مجرد الاقتراب من أسواره العالية ، ولكنه ديننا الذي نولد فيه ويولد فينا هكذا يقينيا بلا

[1] النعت للأستاذ الدكتور محمد عمارة وأجد أن الأجدر بهذه التسمية هم أهل الحق ـ الأشاعرة الماتريدية أنظر تيارات الفكر الإسلامي تأليف الدكتور محمد عمارة ص ٣٥ ط القاهرة ١٩٨٣ م.

[2] إيثار الحق علي الخلق. تأليف ابن الوزير ص ٩ ط بيرت ١٤٠٣ هـ

جدال . و علي ضوء ما نمكن لهذه المناهج الفكرية العميقة الدلالات ـ التأويل عند المعتزلة... ـ من الاستمرار والتواصل والنقد يتجسد إمكان انتمائنا الفكري والعقدي للعصر الذي نعيشه وعلي قدر ما نعترض تمكننا لها واندفاعها فينا ونقدنا لها يتجسد إمكان اقتلاعنا من الفكر والانتماء إلية !

من هنا تصبح مواجهة التأويلات العقلية عند المعتزلة ضرورة عقدية قبل أن تكون حتمية فكرية ، ويصبح الإطلال علي تأويلات المعتزلة من خلال أعين أصحابها فقط جريمة فكرية فادحة ... وكذلك تصبح قراءتنا لردود أهل الحق علي الفكر الاعتزالي بهذه التقليدية الصرفة جريمة أفدح . ومن هنا كان جل هم هذه الصفحات قراءة التأويل عند المعتزلة ... والضوابط الضرورية التي وضعها أهل الحق للتأويل ويؤكد مضمون هذا الكلام أننا سنقتصر علي ذكر التأويل عند المعتزلة وردود أهل الحق عليه ومن ثم كانت دوافع الاقتصار علي منهج التأويل عند المعتزلة ما نراه من أسباب وهي :

أولا :ـ الفكر الاعتزالي هو قائد الأفكار الكلامية إلي الساحة الفكرية الإسلامية ، وفي خبر آخر معه لواء علم الكلام وفي هذا الحكم ايماء إلي اقتداره الفكري بوأه هذه الزعامة الكلامية ، مع التسليم بتصادم هذه الزعامة أحيانا مع منهج أهل الحق . الذين يقودون الفكر في الاتجاه الصحيح .

ويؤكد مضمون هذه المقولة الأخيرة ما نراه من أن الفكر الاعتزالي أكثر عقلانية من الشيعة ، والصوفية الذين منهم المغالي والمقتصد . بل والفلاسفة. فنجد الشيعة (مركز الدائرة عندهم هو الإمام الذي أضاف إليه الشيعة إن حقا وإن باطلا كل علم ، وقدحوا فيه كل حقيقة حتىٰ أضفىٰ عليه ـ الغلاة منهم ـ كما أضفوا علي أبنائه من بعده كل ملامح الغنوص)[1] وقد جعلوا له القداسة ، والولاء والعصمة بينما يجوزون الخطأ علي الجماعة والأمة.

[1] نشأه التفكير الفلسفي في الإسلام ح المقدمة تأليف الدكتور النشار .
و الغنوص : هو التوصل بنوع من الكشف إلي المعارف العليا

ونجد المغاليين من الصوفية يقولون : (بثنائية الشريعة والحقيقة ، أو الظاهر ، والباطن فالشريعة أو الظاهر : هي المظهر الخارجي : هي الرمز والمثال للحقيقة و الحقيقة أو الباطن : هي المرموز إليه أو الممثول وهم يستدلون لذلك بما ورد عندهم مفردا إلي الرسول صلي الله عليه وسلم (إن للقرآن الكريم ظهرا وبطنا ولبطنه بطن الي سبعة أبطن)[1]

هذا الفعل النقدي لا يمكن ممارسته في الفكر الاعتزالي لأننا في الفكر الاعتزالي لا نطمح إلي أبعد من افتراض أن هذا الفكر ينزع في رؤيته الكلامية عن فلسفة ومنطق وعلم بأسرار العربية

فالمعارضة للفكر الشيعي أو الصوفي المغالي تشاؤم محض ، والمعارضة للفكر الاعتزالي قد تكون تفاؤلا محصنا بمنهج أهل الحق (فالذي يعلم الحقيقة أو الباطن هو الامام المعلم " عند الشيعة أو " العارف الولي "عند الصوفية" . عن طريق العلم الوراثي أو الإلهام الإلهي علي خلاف بينهما ، ومن ثم كانت تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية للكتاب السنة وكلاهما يستبطن النص ، ويغفل الشرع ويحرف الكلم عن مواضعه)[2]

---

[1] بحار الانوار تأليف : عباس قمي . ج ٢ ص ٤٤ نص الحديث لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله ، وأنزل القرآن الكريم علي سبعة أحرف ولكل آية منها ظهر وبطن .
رواه بهذه الصيغة . ابن حبان في صحيحه : ١/ ٢٧٦ . والبزار في مسنده : ٧ / ١٥٢ . والطبراني في المعجم الأوسط : ١ / ٢٨٣ . وأبو يعلىٰ في مسنده ٩ / ٢٧٨ .
أما عبارة : " ولبطنه بطن إلي سبعة أبطن " . لم نجدها في كتب الأحاديث وقال عنها ابن تيمية مِنْ الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلَقَةِ الَّتِي لَمْ يَرْوِهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ . أنظر مجموع الفتاوىٰ المؤلف : تقي الدين أبو العباس أحمدَ بن عَبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفىٰ : ٧٢٨هـ)ج ١١ المحقق : أنور الباز – عامر الجزار الناشر : دار الوفاء الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م

[2] قصدنا في كلامنا عن الصوفية الغلاة منهم لأننا نجد التصوف السني عند الغزالي الاشعري وغيره من المنصفين كابن سينا . بعد أن رجع عن الفلسفة ، وترك الملوك ، وأكل أوراق الأشجار، ونام علي ضفاف الأنهار، وختم القرآن الكريم مرة كل ثلاثة أيام، وكتب – مقامات العارفين ومراتب الواصلين ـ . أنظر التوفيق بين الدين والفلسفة عند ابن سينا في ضوء الإسلام . رسالة ماجستير . لكاتب السطور ص ١٣٠ عام ١٩٩٢م كلية أصول الدين بالمنوفية

وعلي أساس من هذه الحرية في الدين وفوضي التأويل يقفز كثير من العلمانيين مع تلك الفوضىٰ لذبح النصوص الشرعية (فهم يؤولون كثيرا من المعجزات الكونية ، وما ورد بشأنها من القران والسنة .

ففلق البحر لموسي : مد وجزر

ورفع عيسي إلي السماء: صعود للروح فقط

وإسراء محمد و معراجه: بالروح لا بالجسد

ويؤولون ما ورد من الغيبيات بل ربما انكروها كذلك فالبعث : للروح فقط كما قال الشيخ الرئيس ابن سينا وغيره من الفلاسفة

والميزان: تمثيل للعدالة الإلهية.

والنعيم والعذاب: للروح لا للمادة

والجن والشياطين: خرافة

وتأثيرهما علي الإنسان : وهم و تخييل وهكذا)[1]

ثانيا : إن الفكر الاعتزالي يمكن معارضة بالفكر الإسلامي الصحيح ، ومعرفة نقاط الخلاف معه ومساحة هذا الخلاف هذا الفعل النقدي يمكن ممارسته في فكر المعتزلة . أما فكر الشيعة وغلاة الصوفية فخطؤه أوضح من أن يكون موضعا لجدال.

ثالثا : الفلسفة النهائية لعالم الفكر الاعتزالي يمكن محاصرته في اخضاع القضايا الإسلامية بل والعقدية لمنطق العقل حيث جعلوا في رؤية خاصة أكثر النصوص الشرعية مجازا واستعارة وكناية وقد كان مقصدها نصرة الدين والرد علي المغاليين في التشبيه والتجسيم لكنهم غالوا في قيمة العقل ورفعوه إلي أواج بعيده حتىٰ جعلوا منه حاكما علي النقل ومع كل هذه العرامة البادية فإن مغالاة المعتزلة في تحكيم العقل جرهم إلي (نفي صفاته جل وعلا الأزلية، وزعموا أن الله تعالي لا يُري بالأبصار في الأخرة وقالوا: بأن المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظره قبل ورود

[1] كتاب " القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون" مقدمة مصطفي صبري ص ٥ في سنة ١٣٦١هـ-١٩٤٢م، وقد ردَّ فيه علىٰ الماديين، الذين يشككون في وجود الله سبحانه وتعالىٰ، وعلىٰ الذين ينكرون الغيب والنبوة والمعجزات .

السمع، وأوجبوا علي الله تعالي فعل الصلاح والأصلح للعباد، وقالوا بالحسن والقبح العقليين وخلطوا بين الأمر والمشيئة، وقالوا: بأن الانسان هو الخالق لأفعال نفسه الاختيارية ، (وجوزوا الكذب فيما تواتر من الاخبار، وردوا لذلك الكثير منها وجوزوا وقوع الخطأ فيما أجمعت عليه الآمة ، مع قولهم بأن من أخبار الأحاد ما يوجب العلم الضروري)[1]

رابعا : مرونة الفكر الاعتزالي قيمة تضاف إلي رصيد الفكر الإسلامي هذا من جهة، ومن جهة أخري كل النقد الموجه من أهل الحق للفكر الاعتزالي من خلال قراءات وليس من خلال قراءة وحيدة فحسب، يظل فيها الفكر الاعتزالي قابلا لكونه فكرا ينقل النصوص الشرعية إلي دائرة العقل المنطقي أو اللغوي ... كأنما يريد أن يخرج النصوص الشرعية من وضعية النص أو علي الأدق لا اجتهاد مع النص إلي موضوعية منطقية أو لغوية ... فلماذا نصر علي تكبيلها هنا بمنهج أهل الحق وحده ولا نطلقها إلي فضاءات فكرية جديدة ؟ ألم تحقق قراءة أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ للفكر الاعتزالي هذه الصيرورة الفكرية التي نبحث عنها في تعاملنا مع الآخر .

و إذن فنحن أمام فكر اعتزالي من لون فريد ـ التأويل عند المعتزلة... فليس من هؤلاء ـ الشيعة ومغالاة الصوفية... الذين يقضون أعمارهم في مدح هذا الامام أو العارف بالله ... وليس من هؤلاء الذين يذبحون النصوص الشرعية قربانا لإمام الشيعة أو العارف الصوفي... وليس من هؤلاء الذين يظل ديوانهم الكلامي تاريخا لا فكر فيه ربما لا نجترح يوما لنقول فتات أفكار ... وإنما الفكر الاعتزالي يحمل بين جنبية هما جماعيا مؤرقا يمكن أن نسميه من خلال إيمانه بفكره ودفاعه عن الاسلام (فكرا وقضية) ... والواقع أننا نختلف مع الفكر الاعتزالي في كثير من قضاياه وحول مفهوم الوسائل التي ارتضاها طريقا موصلة إلي تحقيق ما يؤمن به من قضايا التأويل ... ولكنك لا تستطيع إلا أن ترض عن هذا الاجتهاد المغامر الذي رفض التقليد

[1] الفرق بين الفرق . تأليف البغدادي: ص ٦٧ : ٦٨ بتصرف

والتسليم للغير دون حجة ...لكنة فكر ينتضىٰ سلاحا منطقيا وفلسفيا بل ولغويا من أجل الدفاع عن الإسلام ... وربما كان الاشعاع الذي يوحيه هذا الفكر يجعلنا نقول :

منهجي في البحث

قد اعتمدت في دراستي علي أكثر من منهج

١ـ المنهج التاريخي: الذي يقوم علي التعرض لجذور الخلاف الفكري بين المعتزلة وأهل السنة.

٢ـ المنهج الاستقرائي الناقص: فقد اقتصر بحثنا علي الجدل الدائر بين المعتزلة وأهل الحق في قضية تأويل النصوص الشرعية

٣ـ المنهج التحليلي: الذي يرد الفروع إلي الجذوع ويرد الجذوع إلي الجذور. وكانت جذور القضية في مفهوم النصوص الشرعية عند المعتزلة، ومنهج أهل الحق الذي يترتب عليه الحكم بصحة الصحيح وفساد الفاسد.

٤ـ المنهج التعليلي: الذي يهدف إلي بيان السبب بعد التحليل

٥ـ المنهج المقارن: إذ عمدت إلي مقارنة الفكر الاعتزالي بفكر أهل الحق.

٦ـ المنهج النقضىٰ : الذي يقوم علي نقض الفكر المخالف لمفهوم النصوص الشرعية، وكان عمدتنا فيه أهل الحق.

٧ـ المنهج الاستنباطي: الذي يعتمد علي استنباط النتائج من المقدمات.

هذا وقد جاء البحث في مقدمة وخمسة مسائل و خاتمة.

المقدمة: تناولنا فيهما أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهجنا في البحث وقيمته العلمية.

المسألة الأولىٰ: المعتزلة. نشأتهم و تاريخهم.

يمكن في هذه النشأة أن نتأمل ملامح لوحات عقلية. تقف كل لوحة منها علي مساحة بذاتها من الأرضية العلمية ، ولكنها لا تنعزل بهذه المساحة عن سائر اللوحات ... فبينما تشكل اللوحة الأولي حوارية هادئة يتعالىٰ فيها صوت واصل المفرد في تفكيره المليء بحس المنطق تشعر مع ذلك أن البسيط في البداية والمركب

في الخاتمة مع أعلام الفكر الاعتزالي.

المسالة الثانية: مصادر الأدلة عند المعتزلة.

هي الحاملة لأساس الفكر الاعتزالي ـ مصادر الأدلة – ... ولكن هل استطاعت هذه المصادر أن تنهض بهذه المهمة الخارقة ـ تقديم حجة العقل ـ علي الكتاب والسنة والإجماع ؟ هل استطاعت المعتزلة أن تذيب كل القضايا في منظور عقلي ؟ وهل استطاعت المعتزلة أن تنزع عن إيمان حقيقي بدور العقل وحده في تعبيره عن إيمان حقيقي بأن الشرع قضيته وحده ؟

أو أننا يجب أن نذكر المعتزلة باستمرار أن الرؤية الفكرية مغايرة في أحيانا كثيرة للرؤىٰ الإيمانية لأن العقول تختلف فهذا عقل المعتزلة وهناك عقل أخر علي آخر طراز وهكذا ؟!

المسالة الثالثة: التأويل عند المعتزلة أدواته ووسائله.

حاولت المعتزلة في هذه المسألة أن تحقق هذا الفكر ـ التأويل عن المعتزلة... وحاولت أن تعبئ كل المصادر والوسائل والأدوات بما شاءت من مفاهيم حتىٰ لا نشعر نحن للحظة واحدة أن هنا تقديم العقل وهنا النصوص الشرعية المعصومة وبينهما فصام في المحتوي . وقد حاولت المعتزلة أن تقوم بهذا الفعل الفكري الحقيقي إلي مدي بعيد فهي تؤكد بأن أكثر لغة العرب من قبيل المجاز لا الحقيقة وتكلموا عن وجوه المجاز وضروبه والقران الكريم تنزل بلغة العرب كل هذا ليسلم لها وجه التأويل الاعتزالي ... ولكن الذي حدث هو أننا نتأمل في النهاية عملا فكريا ينتقل في تعميق ذاته فينا وهو منهج أهل الحق.

المسالة الرابعة: أسباب التأويل وحدوده عند المعتزلة.

التأويل عند المعتزلة نتاج مصادر المعرفة والأدوات والوسائل التي أتبعوها فعالم التأويل الاعتزالىٰ ليس مغايرا للمنهج الذي اتبعوه فهو يجري علي منطق خاص ـ تقديم العقل ـ وليس علي الاطلاق ونري أن المعتزلة ترتقي في هذا التأويل مرتقي لا يعلو عليها إلا أهل الحق فالمعتزلة علي الاجمال عقلانيون ولهم مزايا العقلانية

وعيوبها في آن واحد.

المسالة الخامسة: من قضايا التأويل عند المعتزلة.

بدا وَضحُ الفكر التأويلي عند المعتزلة في قضيتي الذات والصفات والرؤية أنهم يمارسون الإبداع التأويلي بمنطق وفلسفة ولغة أكدوا أن أكثرها من قبيل المجاز لا الحقيقة وحسبنا ما فطن إليه أهل الحق في كثير من نماذج التأويل الاعتزالىٰ وتخلىٰ عنه الباحثون .

الخاتمة: كانت وقفة قصيرة أوضحنا من خلالها أهم النتائج وأهمية الفكر الاعتزالي ، وفكر أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ .

واللهَ أسأل أن يحرك موضوع البحث جو التفكير ، باتكائه علي مسائل تثري الفكر، فيكسر بذلك رتابة التقرير والقول .

وعلىٰ الله قصد السبيل إنه سميع قريب مجيب .

المسألـة الأولـى

المعتزلـة : نشأتـهم و تـاريـخهم

نستطيع أن نقرأ نشأة المعتزلة قراءة أخرىٰ تخرج بنا عن حرفية رواية واصل بن عطاء في مجلس الحسن البصري إلي الإفضاء إلي الثقافة الفكرية لواصل والتي لم تكن وليدة قضية مرتكب الكبيرة.

والواقع أننا لا نعاني طويلا لنفهم أن واصل في رده علي سؤال مرتكب الكبيرة دلل علي أن هناك عوالم فكرية كبيرة ومتجاوبة كذلك. تلقاها وتجاوز بها المباشرة بتحليقه بالواقع الفكري فوق الواقع الديني كثيرا. حتىٰ بدا في إجابته ـ في منزلة بين المنزلتين ـ ليس مجرد مفكر تلقي العلوم الإسلامية فقط . علي الرغم من أن السؤال ديني ، لكنة هنا دمج بين الذات والمفهوم في اقتدار فكري بارز ومن خلال ثقافة منطقية وفلسفة فائقة الجمال جاءت الإجابة .

فإذا أدرنا الحديث عن (نشأة واصل بن عطاء (٨١ ـ١٣١ هـ) شيخ المعتزلة ، ومؤسس مدرسة الاعتزال في المدينة وقد تتلمذ فيها علي يد أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، كما أخذ عن "معبد الجهني"[١] ، وهما أصل مذهب الاعتزال الذي شاع بعد ذلك علي يد واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد (٨٠ـ ١٤٤هـ)[٢]

ولقد انتقل واصل من المدينة الي البصرة بالعراق وهو مشبع بآراء وأفكار مختلفة عن أفكار وآراء مدرسة "الحسن البصري"[٣] أفكار تقبل عديدا من التفسيرات والتأويلات . وبقدر هذه التأويلات بقدر ما تكون ثقافة واصل، ونعتقد أن البصرة وما تعاورها آنذاك من أفكار الشيعة والجهمية والقدرية ... وغيرها من المذاهب يمكن

---

[١] معبد الجهني هو معبد بن عبد الله بن عويمر الجهني أول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة ونشأت علي رأيه فرقة القدرية ـ أنظر سير أعلام النبلاء تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج ٤ ص ١٧٥ ط مؤسسة القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م

[٢] الملل والنحل تأليف: الشهرستانىٰ ص٦٤ وانظر الفرق بين الفرق تأليف: البغدادي ص ٧٨وانظراعتقادات فرق المسلمين المشركين تأليف : الرازي ص ٢٩

[٣] الحسن البصري : إمام وعالم من علماء أهل السنة يكنىٰ بابي سعيد ولد قبل سنتين من نهاية خلافة عمر بن الخطاب ... ودعا له عمر رضي الله عنه فقال " اللهم فقهه في الدين وحببه إلي الناس " حفظ الحسن القرآن الكريم في العاشرة من عمره

أن تكون دليلا قويا علي أن المعتزلة لقبت بالقدرية أحيانا وبالجهمية أخرىٰ علي الرغم مما بين المعتزلة وبين الفرقتين من خلاف. يقول النشار (ولقد كان واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد شيخا المعتزلة يتصلان بفكر القدرية ، والجهمية رواد مذهب التأويل العقلي ... ولهذا نسبت مدرسة الاعتزال فيما بعد إلي الطائفتين، فلقبت بالقدرية أحيانا ، والجهمية أخرىٰ ، علي الرغم ما بين المعتزلة وما بين القدرية والجهمية من خلاف)[1]

ويري تبرج (أن الاعتزال قد نشأ أول ما نشأ في القدرية)[2]

ويبدو أن سبب تسميتهم بالمعتزلة فيه خلاف يرجع إلي مقولة الحسن البصري "اعتزلنا واصل " حتىٰ أطلقوا عليهم لقب المعتزلة وهذا ما شاع.

ونرىٰ أن سبب التسمية ترجع إلي أن المعتزلة كانوا يلتفون حول علي رضي الله عنه ولا يرون أحدا من الصحابة يتطاول فينال الخلافة من علي... وبعد أن بايع الحسن بن علي معاوية رضي الله عنهم اجمعين . بالخلافة اعتزلوا الناس وأطلقوا علي أنفسهم المعتزلة وقالوا أن لفظ الاعتزال لم يرد في القرآن الكريم إلا للدلالة علي اعتزال الباطل. وهذه التسمية نظفر بها فيما ارتآه النشار من أن (سبب تسميتهم بهذا الاسم أنما يعود إلي موقفهم من الخلاف الذي شجر بين المسلمين من شيعة ، وخوارج ، وبعد أن بايع الحسن بن علي رضي الله عنه معاوية بن أبي سفيان بالخلافة عام ٤٠ هـ وهو العام المعروف بعام الجماعة وقد كان هؤلاء من أتباع علي ، وهم الذين سموا أنفسهم "معتزلة " لأنهم اعتزلوا الحسن ، ومعاوية ، وجميع الناس ، ولزموا منازلهم ، ومساجدهم ، وقالوا نشتغل بالعلم ، والعبادة ، فسموا بذلك معتزلة لاعتزالهم السياسة وشئون الدنيا ، وعلي ذلك فسبب تسميتهم بهذا الاسم انما تعود إلي عدم موافقتهم علي مبايعة الحسن لمعاوية وانتقال الخلافة إلي بني أمية ، وأن هذا الاسم قد أطلقته المعتزلة علي أنفسهم ، وقد كانوا يرون فيه شرفا لهم ، وكانوا

[1] نشأه الفكر الفلسفي في الاسلام تأليف د. النشار ص٣٧٣

[2] تاريخ الجدل تأليف : الشيخ أبو زهرة ص١٩٦

يفخرون بأن لفظ الاعتزال لم يرد في القران الكريم إلا في الدلالة علي الاعتزال عن الباطل)[1]

والعجيب أن الإمام الرازي حكىٰ ذلك عن القاضي عبد الجبار ، والأعجب أن يعقب عن جذور المعتزلة وشرف التسمية ـ الاعتزال ـ بقوله (إنه فاسد لقوله تعالي : (وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ) [2] فإن المراد به الكفر)[3]

ويبدو موقف المعتزلة من السياسة كما رأينا مع أن نشأتهم كانت سياسية . إلا أنهم (قضوا في البداية نحو قرنين من الزمن يتحاشون التحزب ، والتشيع ، ويؤثرون الحياد في الرأي ، والعمل ... إلا أنهم لم يكونوا بمعزل عن مشكلة الإمامة وهو المنشأ الأول للفرق وقد وقفوا موقفا وسطا، وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين)[4]

وتبلغ النقمة بالمعتزلة قمة تأزمها حتىٰ رجعت مرة أخري للعمل بالسياسة لتستريح من ضغط أهل السنة فقد عاشت عمرها الطويل تحت وطأة السياسة ، ولم تعط فرقة أهل الحق للمعتزلة حقها في التجديد والابتكار فكان ذلك مدخلا إلي ضرورة العمل بالسياسة . لأن الفكر النقضي لأهل السنة يجمع علي أنه يجب محاربة الفكر الاعتزالي وإلا انبثق منه شر لا ترتضيه الأمة.

ومحاربة أهل الحق للفكر الاعتزالي رغم ما تلوح به أفكار المعتزلة من جودة واضحة (اضطرهم ـ المعتزلة ـ أخيرا تحت ضغط أهل الحق أن يلجأوا إلي "البويهيين"[5] وأن يستخدموا السياسة مرة أخرىٰ ـ أي بعد أن لجأوا إليها في صدر الدولة العباسية وخاصة في زمن الرشيد والمأمون فساعد ذلك علي نشر مذهبهم في

---

[1] نشأة الفكر الفلسفي . تأليف : النشار ص ٣٧٨ ـ وانظر الرد علي أهل الأهواء للملطىٰ : ص ٤٠ ،٤١

[2] سورة الدخان أية ٢١

[3] اعتقادات فرق المسلمين والمشركين تأليف : الرازي ص٢٩

[4] في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه .تأليف الدكتور مدكور : ج٢ ص ٣٧

[5] البويهيين : قامت الدولة البويهية في الجزء الغربي من إيران وفي العراق وأسسها أسرة بني بوية . وأشهر رجال أسرة بني بويه : الحاكمة ثلاثة هم : علي ، والحسن ، وأحمد أبناء بويه . وتعود أصول هذه الأسرة إلي الفرس. ـ أنظر . معجم الأدباء . ارشاد الأديب إلي معرفة الأريب . المؤلف ياقوت الحموي ص ٧٥ المحقق . إحسان عباس . الناشر . دار الغرب الإسلامي ١٩٩٣م

بلاد فارس والبحرين واليمن وعلي أيدي الصاحب بن عبادة (٣٨٥ـ٩٩٥) الوزير البويهي خاصة ، الذي حاول أن يبث أراء المعتزلة بشتىٰ الوسائل ، ولكن السياسة إن أعطت بيد أخذت بالأخرىٰ ، فلم يلبث أن فقد المعتزلة استقلالهم ، وأضحوا ظلا للشيعة ، وما أن زالت دولة البويهيين ، وحل محلها الحكم التركي السني حتىٰ تلاشت حركة الاعتزال ولم يبق لها من أثر إلا في صفوف الشيعة ولدي "الزيدية"[١] بوجه خاص)[٢]

أليس هذا بعض إسقاط لكثير من الصعوبات التي كانت المعتزلة تواجهها ، وتحرص فرقة أهل الحق علي محاربة الفكر الاعتزالي ربما ليحتل الفكر الإسلامي علي يد أهل الحق موقعه في واقع فكري شرس لا يعترف إلا بالأقوياء في الحجة وصياغة الأدلة العقلية. ومع كل هذه الصعوبات البادية للفكر الاعتزالي فإننا نعترف أن المعتزلة قبل ذلك (مرت بفترة عباسية (١٠٠: ٢٣٧ هـ) عاش رعيلها الأول تحت حكم الأمويين قليلا ، ثم ملأ صدر الدولة العباسية نشاطا وحركة ، ونظرا وجدلا ودفاعا .

عن الدين في جو ملئ بالأفكار والآراء الحادثة والدخيلة ، بدأ في البصرة ، ثم امتد منه فرع إلي بغداد وبقدر ما تحرز البصريون من السياسة ، انغمس البغداديون فيها ، وأسهموا في إشعال نار محنة خلق القران الكريم وأججوها حتىٰ أكلتهم ، وقضىٰ المعتزلة ـ بعدها ـ نحو قرن تقريبا(٢٣٧ ـ ٣٣٤ هـ)في تراجع وتدهور)[٣]

فإذا تجاوزنا هذه الفترة ، وهي قمة التعبير الفكري ، الذي أذهلنا بالتوافق المتميز بين مفهوم المناخ الفكري للمعتزلة من منطق وفلسفة ، وعلم بأسرار العربية يحمل

---

[١] الزيدية : إحدىٰ فرق الشيعة ، نسبتها ترجع إلي مؤسسها زيد بن علي زين العابدين الذي صاغ نظرية شيعية في السياسة والحكم وقد جاهد من أجلها وقتل في سبيلها وكان يرىٰ صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ولم يقل أحد منهم بتكفير الصحابة رضي الله عنهم ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع جود الفاضل ـ انظر الإمام زيد تأليف الشيخ محمد أبو زهرة ص ٧٧ ط دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩١م

[٢] في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه .تأليف الدكتور مدكور : ج٢ ص ٣٧

[٣] في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه تأليف الدكتور: مدكور ج٢ ص ٣٦

إلينا بوح هذا الفكر العقلاني فبعد (القرن الخامس الهجري خبت حركة الاعتزال، ولم يبق لها من أثر إلا عند الشيعة ، وخاصة الزيدية منهم لما بين المذهب وبين أئمتهم من صلة ، فإنهم يذهبون إلي أن واصل بن عطاء قد تتلمذ علي يد أبي هاشم عبد الله بن محمد الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه)[1]

أعرف أننا نحمل بهذه القراءة الأخير علي الفكر الاعتزالي ما لم يرده، ولكن من قال بأن الفكر الاعتزالي لم يبق له وجود من أثر إلا عند الشيعة... ولكننا نري بأننا في قراءتنا للفكر الشيعي نجده يتعامل بعقلية المعتزلة في قضاياه أو علي الأدق بمنطق المعتزلة أو بفلسفتها أو بها معا . ألسنا شركاء في التأكيد علي ذلك ما دمنا نعلم أن (أمامهم ـ الشيعة ـ زيد بن علي(١٢٢هـ -٧٤٠م) تتلمذ علي يد واصل بن عطاء ، وكل ما جاء بعد هذا التاريخ أفراد معدودة اعتنقت المذهب ولكنهم لم يأتوا فيه بجديد أمثال الزمخشري(٥٣٨ هـ - ١١٤٤ م) وابن أبي الحديد صاحب شرح نهج البلاغة(٦٥٤ هـ - ١٢٥٧م) والمرتضي الزبيدي الزيدي (٨٣٧ هـ - ١٤٣٦م) وغيرهم)[2]

تلك كانت نشأة المعتزلة وتاريخهم الفكري الذي ترك علي الإبداع الإسلامي ظلالا من تأثيراتهم العميقة... وقد أذهلتنا هذه الوضعية الفكرية المقتدرة للمعتزلة التي شكلت صوتا خاصا في معترك فكري تختلط فيه الأصوات ـ أهل السنة

والشيعة، والخوارج، والمرجئة... ـ والأضداد بلا حدود !! فهم بغير شك رواد بحث عقلي وفلسفي، وهم بحق فلاسفة الإسلام ولعل هذا الاتجاه العقلاني هو الذي فسح للمعتزلة في ضمير الحركة الفكرية الإسلامية مكان التفرد والبروز في الفكر الإسلامي.

ولكن مع كل هذه العرامة للأفكار الاعتزالية من قال إننا في قراءتنا للفكر الاعتزالي نفكر بعقلية المعتزلة ـ منطقها وفلسفتها وإدراكها لأسرار العربية ـ ألسنا

[1] المرجع السابق ج ٢ ص٣٧

[2] المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧

شركاء في فهم النصوص الشرعية ما دمنا نستطيع أن نتأولها تأويلا صحيحا موائما لروح النصوص يخرج بنا من خصوصية الباعث الاعتزالي ـ الدفاع عن الدين ـ إلي عمومية الفكر والباعث ومن محدودية الفكر الجزئي ـ المعتزلة – إلي مطلق الفكر الكلي والشامل عند أهل الحق وغيرهم وهو ما تحقق لهم علي نحو من الاصالة والوعي والوضوح حين وضعوا الضوابط الضرورية للتأويل وهذه سمة أفكار أهل الحق التي تتناغم فكرا ومضمونا وتتوافد لغة وروحا وبناء !!!.

المسألة الثانية:

مصادر الأدلة عند المعتزلة

يتبدىٰ بوضوح أن مصادر الأدلة عند المعتزلة هي الأساس الذي يصدر الفكر منه وإلية يعود.

والمصادر عند المعتزلة ـ كما ذكر القاضي عبد الجبار رأيهم ـ أربعة :

١ـ حجة العقل ٢ ـ الكتاب ٣ـ السنة ٤ـ الإجماع

أولا: حجة العقل[١]:

مع ما في هذا القول ـ تقديم حجة العقل علي الشرع من تزيد عند جل الفرق الإسلامية فإن الفكر الاعتزالي يضع التفكير العقلي في مكانه الحقيقي من حركة الفكر الإسلامي حين يتكئ في أدلته علي ما يسمي في المصطلح العقدي بالقمة الإيمانية – الله جل وعلا – ويتكئ علي أقوي الأدلة في (قول القاضي)[٢]: (ومعرفة الله تعالي لا تنال إلا بحجة العقل فهي لا تكون بالكتاب ، ولا بالسنة ، ولا بالإجماع، ولا بمجموع ذلك كله، لآن ما عدا حجة العقل فرع علي معرفة الله تعالي بتوحيده ، وعدله، فلو استدللنا بشيء منها علي الله والحال هذه ، كنا مستدلين بفرع الشيء علي أصله وذلك لا يجوز .

بيان هذا: أن الكتاب إنما ثبت أنه كلام عدل حكيم، لا يكذب ولا يجوز عليه الكذب وذلك فرع علي معرفة الله تعالي بتوحيده، وعدله)[٣]

ويتفق رينيه ديكارت الذي يعده الباحثون رائد العقليين في الفكر الحديث مع المعتزلة في قولة :

(العقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر، فالطفل الذي قام بعملية جمع عددين جمعا صحيحا يعرف عن ذلك المجموع قدر ما يعرفه عنه أعظم الحاسبين في

---

[١] يجب التفرقة بين العقل النظري والعملي . فالنظري : مثل الكل أكبر من الجزء . والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان وهذا في أصل التوحيد .

والعقل العملي : أفعل ولا تفعل وهو في باب العدل عند المعتزلة

[٢] القاضي عبد الجبار بن أحمد بن الخليل المتوفي سنه ٤١٥ هـ ـ أنظر شرح الاصول الخمسة للقاضي ص ٨٨ ، ٨٩

[٣] شرح الأصول الخمسة للقاضي ص ٩٠ ، ٩١

العالم)[1]

ومع أن العقل في منبعه ليس تقريريا بل معياريا لكن المعتزلة في قضاياها تقول: "اللهم إلا العقل" فالعقل عندهم (هو أول الأدلة، وليس ذلك فقط ، بل هو

أصلها الذي به يعرف صدقها، وبواسطته يكتسب الكتاب والسنة والإجماع قيمة الدليل وحجيته ... لأن حجية القران الكريم متوقفة علي حجية الرسالة، وهما متوقفان علي التصديق بالألوهية ، لأنها مصدرهما ، فوجب أن يكون لإثبات الألوهية طريق سابق عليهما ، وهذا الطريق هو برهان العقل)[2]

فالدليل العقلي يفرض ذاته علي مصادر الأدلة عندهم والدليل العقلي عندهم فوق المناقشة لأن العقل (وكيل الله عند الإنسان جعل إليه أزمة أموره، وقيادة نشاطاته... وهم يطلبون أن يدعم الإنسان عقله الغريزي بعقله المكتسب فذلك هو السبيل لبلوغ غاية الكمال)[3]

وقيمة العقل ومكانته تثير اهتمام بشر بن المعمر ـ من قدامي المعتزلة ـ فيقول :

لله در العقل من رائد ... وصاحب في العسر واليسر
وحاكم يقضي علي غائب ... قضية الشاهد للأمر
وإن شيئا بعض أفعاله ... أن يفصل الخير من الشر
لذوي قوي قد خصه ربه ... بخالص التقديس والطهر [4]

وتتبَّدىٰ في قضية تقديم العقل علي النقل عند المعتزلة مزيدا من التأمل ، لأن الجبائي ـ أبو علي من شيوخ المعتزلة ـ يري (أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يعرف بالعقل أولا ثم يأتي الشرع مؤيدا معرفة العقل بعد ذلك)[5]

ويبحث الجبائي في دائرة العقل عن منطق يستدل ويقيم البرهان علي ضرورة

---

[1] العقل والمعايير تأليف أندرية لالاند ص ٤٩
[2] تيارات الفكر الإسلامي. تأليف: الدكتور محمد عمارة ص ٧٠
[3] المرجع السابق: ص ٧٠
[4] كتاب الحيوان . تأليف: الجاحظ الجزء السادس ص ٩٥
[5] شرح الأصول الخمسة تأليف: القاضي عبد الجبار بن احمد ص ٧٤٢

تقديم العقل علي الشرع فيقول (لو لم يكن الطريق إلي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعقل لكان المكلف مغري بالقبيح ويكون في الحكم كمن أبيح له ذلك)[1]

ثانيا: الكتاب:ـ

المصدر الثاني من مصادر الأدلة عند المعتزلة، وقد وفرت قضية تقديم العقل علي النقل نوعا من الاحتدام والتأزم لدي الفرق الأخرىٰ... فبدت قضية تقديم العقل علي النقل عند المعتزلة كأنما هي بركان عظيم موشك علي الانفجار والاجتياح... إلا أن الملاحظة العامة علي هذا التقديم تتجسد في تضامين جل النصوص الشرعية لأكثر من "تفسير وتأويل"[2]، وهذا النوع من الحوار والجدل يوسع قاعدة الفعل الفكري ويغني النصوص الشرعية بعناصر التقابل وحوار الأضداد... وإذ تعترف المعتزلة أن سندها الأول هو " العقل " فإنه يترتب علي هذا مباشرة وعلي الفور وبدون صعوبة أنهم إذا وجدوا من النصوص الشرعية ما يوهم التعارض مع مبدأ من "مبادئهم"[3] فإنهم يؤولون الآيات القرآنية الكريمة ويخرجونها عن ظاهرها الي معانىٰ تتفق مع مبادئهم . يقول القاضي عبد الجبار: (ما لا يجوز إلا علىٰ الأجسام يجب نفيه عن الله تعالي واذا ورد في القران الكريم آيات تقتضي بظاهرها التشبيه وجب تأويلها لآن الألفاظ معرضة للاحتمال و دليل العقل بعيد الاحتمال)[4]

---

[1] شرح الأصول الخمسة تأليف: القاضي عبد الجبار بن احمد ص ٧٤٢

[2] سنوضح معني التفسير والتأويل والفرق بينهما في مناسبة قادمة

[3] فكان الاصل الأول ـ التوحيد ـ للرد علي المشبهة والمجسمة

ـ وكل الأصل الثاني ـ العدل ـ للرد علي الجبرية والقدرية ومن علي مشاكلتهم

ـ وكان الأصل الثالث ـ الوعد والوعيد ـ للرد علي المرجئة الذين أفرطوا، وقالوا : (لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

–وكان الأصل الرابع ـ المنزلة بين المنزلتين ـ للرد علي سؤال بجواب تمليه البديهة وخالفوا فيه الخوارج.

ـ وكان الأصل الخامس ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ تناول فيما يتناوله مجموعة الأفكار التي هي حاملات القيم خلافا للأمامية .

[4] في العقيدة الاسلامية بين السلفية والمعتزلة تأليف الدكتور: محمود خفاجي ص ١٠٢

لا مشاحة إطلاقا فيما يتعلق بتنزيه الباري "جل وعلا" فلكي يسلم لهم أصل التوحيد نجدهم ينفون عن الباري جل وعلا كل ما يوهم ظاهره التجسيم أو التشبيه لآن الله تعالي " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ " لذلك نراهم يؤولون الآيات والأحاديث التي تشير بظاهرها إلي ما يوهم الكثرة أو التعدد أو التركيب فيصرفونها عن ظاهرها ويؤولونها إلي معان مجازية تتفق مع التنزيه المطلق لله تعالي .

ومع هذا التنزيه الذي نري فيه أن التأويل صرف النصوص إلي معان مجازية أسلم . فلا يزال عند المعتزلة جانب أكثر سوءا وهو تطرفهم في هذا الطريق والقول بالتجريد الذي أدي بهم إلي الوقوع في التعطيل ، ونفي صفات الباري جل وعلا حتىٰ لقبوا "بالمعطلة "

وكان يجب علي المعتزلة في هذا المقام- تنزيه الباري جل وعلا ـ اتخاذ تحفظات حذرة وألا يجرها القول بالتنزيه إلي القول بالتعطيل والتجريد ، ونفىٰ رؤية الباري جل وعلا في الدنيا والآخرة لآنها عندهم نوع من التشبيه الذي يتعارض مع مبدأ التوحيد والتنزيه، والمعتزلة في قضية " المحكم والمتشابه"[1] في النصوص الشرعية تأبي أن تقف موقف المتفرج الذي يراها ، ولا يتدخل في تأويلها ولا يشارك في توجيهها بل ترىٰ أن التأويل إجابة عقلية لسؤال جيد الوضع.

والكلام في المتشابه يثير صعوبات لأن التناظر بين المعرفة بمعناها الصحيح وبين الحق الواقع صعب. لذا كان السؤال الذي يفرض نفسه علي الأذهان هو:

---

[1] المحكم في اللغة: العرب تقول: حكمت، وأحكمت بمعني: رددت ومنعت والحكم: الذي يمنع الظالم عن ظلمة ، وحكمة اللجام تمنع الفرس عن الاضطراب وأحكموا سفهاكم ، أي أمنعوهم ، وبناء محكم : أي وثيق يمنع من تعرض له . القاموس المحيط للفيروز أبادي ج٤ ص ٩٨ ، وسميت الحكمة حكمة : لأنها تمنع الموصوف بها عما لا ينبغي فالمحكم علي هذا هو : ما أحكم المراد به عن التبديل والتغير أعني التخصيص والتأويل . أما المتشابه: فهو مالا يرجىٰ دركه أصلا : كالمقطعات في أول السور. ويقال : اشتبهت الأمور وتشابهت : التبست فلم تتميز ولم تظهر ، وشبهته عليه تشبيها : لبسته عليه تلبيسا ومعني الاشتباه الالتباس ، والمشابهة : المشاركة في معني من المعاني كون الأشياء متشابهة أي يشبه بعضها البعض بحيث يعجز الذهن عن التمييز بينيهما كما في قولة تعالي : (إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا) وكقولة تعالي : (تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ). وقيل المحكمات : لا تحتمل إلا معني واحد . المتشابهات : تحتمل أكثر من معني القاموس المحيط للفيروز أبادي ج ٤ ص٢٨٦ ـ ط الحلبي

لماذا لم يأت القرآن الكريم كله محكما !!؟

ونوقش السؤال وكان من بين الاجابات القول بأن الآيات المتشابهة تحفز العقول إلي البحث والنظر وأن في القرآن الكريم ما يدل علي أنه كله محكم. وفيه ما يدل علي أنه جميعا متشابه. وفيه ما يدل علىٰ أن بعضه محكم وبعضه متشابه وقد أسهم الإمام الرازي في توضيح ذلك بقوله : (إن كتاب الله تعالي : دل علي أنه بكليته محكم . ودل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه ففي الأول اقرأ قوله تعالي (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيم خَبِير) [1]

وقوله تعالىٰ (الر تِلكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيم)[2] وقولة تعالى (ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ)[3] وقولة تعالي (يس .وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)[4]

وفي الثاني : اقرأ قوله تعالي : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ)[5]

وفي الثالث: اقرأ قوله تعالي: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)[6]

ويبدو لي أن التوقف والتفويض والتسليم في مثل هذه القضايا للمتشابه أسلم وهو منهج أهل السنة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ لآن (الحكمة خفية والذين يبتغون الحكمة يتكلفون لها معاني كثيرة يختلفون حولها. وكل منهم ينفرد بمعني من غير حجة صحيحة إلا مجرد الاحتمال وربما خالفوا في ذلك المعلوم من الدين)[7]

ثالثا: السنة

المعتزلة المخلصة للمنهج العقلي ترىٰ وجوب وجود ضامن للأفكار في الكتاب

---

[1] سورة هود آية ١

[2] سورة يونس آية ١

[3] سورة أل عمران آية ٥٨

[4] سورة يس آية ١ ، ٢

[5] سورة الزمر آية ١٣

[6] سورة أل عمران آية ٧

[7] ايثار الحق علي الخلق تأليف: ابن الوزير ص ٩٠

والسنة. فالكتاب إنما ثبت أنه كلام عدل حكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأما السنة فتكون حجة متي ثبت أنها سنة رسول عدل حكيم وموقف المعتزلة من السنة علي جانب كبير من الأهمية فهم لا يأخذون بالضعيف أو الأحاد في المسائل العقدية وإن أجازوا الأخذ به في المسائل العلمية .

ويحلل ويعلل القاضي عبد الجبار لأخبار السنة بدليل في صورة سبر وتقسيم : فيقول (إن الاخبار لا تخلو : إما أن يُعلم صدقها ، وإما أن يعلم كذبها ، وإما أن لا يعلم صدقها ولا كذبها)[1] وسيأتي بيان ذلك في مناسبة قادمة.

والظاهر بل الواضح بل المؤكد إخضاع المعتزلة للنص وتأويله ليوافق العقل خطأ فاحش ، لكنه معقول عند من يطلقون عليهم رواد العقلانية وفرسان الدفاع عن الإسلام ، ولعل شدة سخافة المعتزلة في القول بأن مصدر الدين حكم العقل بل وجعله مقدما علي الكتاب والسنة والإجماع بل وحكما عليهم يتحدىٰ أية معقولية .

رابعا: الإجماع

الاجماع عند المعتزلة (إما أن يستند إلي الكتاب في كونه حجة ، أو يستند إلي السنة وكلامها فرعان علي معرفة الله تعالي التي لا تكون إلا بالعقل فهي ـ معرفة ـ لا تكون بالكتاب ، ولا بالسنة ، ولا بالإجماع ، وإن كنا مستدلين علي معرفته تعالي بغير العقل كنا كمن أراد أن يستدل بفرع الشيء ، علي أصله ، وذلك لا يجوز عند المعتزلة)[2]، وجدير بالذكر هنا أن " النظام " و " الخياط " كانا يقرران أن المعتزلة تأخذ بالإجماع وعرف عن النظام (أنه كان معتقدا بصحة الإجماع، ويرىٰ الخياط اعتقاد المعتزلة في الإجماع ويقرر أنها تأخذ به)[3]

وهنا سؤال يطرحه العقل علينا وهو

أليس القياس يعد دلالة علي الأحكام الشرعية ؟ فهل هو داخل فيها ؟

---

[1] شرح الاصول الخمسة . تأليف القاضي ص٧٧٠

[2] شرح الأصول الخمسة تأليف : القاضي ص ٨٨ . ٨٩

[3] في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة . تأليف الدكتور محمود خفاجي ص ٢٨

(قال الإمام أحمد : لا يستغني أحد عن القياس : ... والمثبتون للقياس اختلفوا فيه علي أربعة مذاهب :

أحدها : ثبوته في العقليات والشرعيات وهو قول أصحابنا من الفقهاء والمتكلمين وأكثر المعتزلة

والثاني : ثبوته في العقليات دون الشرعيات وبه قال النظام وجماعة من أهل الظاهر

والثالث : نفيه في العلوم العقلية ، وثبوته في الأحكام الشرعية التي ليس فيها نص ولا إجماع

الرابع : نفية في العقليات والشرعيات وبه قال أبو بكر بن داود الأصفهاني)[1]

وبعد أن تعقبنا مصادر الأدلة عند المعتزلة فإن الذي نريد للباحثين أن يخرجوا به من هذا كله ليرسخ بعد ذلك رسوخا ثابتا يساعدهم في توجيه أبحاثهم العلمية ، ما لفت أنظارنا اليه القاضي وهو: أن ما تذكره المعتزلة من الأدلة النقلية في باب الاستدلال إنما يذكرونه (تنبيها علي أن كتاب الله المحكم يوافق ما ذكروه)[2]

وبدهي أن سعة المعرفة بمصادر الأدلة عند المعتزلة يؤكد ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار وبعد كل ما قدمناه عن مصادر الأدلة عند المعتزلة نستطيع أن نقول :

" تقديم العقل علي الشرع عند المعتزلة من خلال رفع المعتزلة لقيمة العقل في قولها (والناس في العقل سواء وكل عاقل بالغ يجب عليه بعقله أن يستدل بأن للعالم صانعا ، كما استدل ابراهيم صلوات الله وسلامه علية وأصحاب الكهف رضي الله عنهم حيث قالوا:(رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)[3])[4]

---

[1] البحر المحيط ـ كتاب القياس ج ٧ ص ١٩ تأليف بدر الدين بن محمد بهادر الزركشي . المحقق عبد القادر عبد الله العاني ١٩٩٢م

[2] شرح الأصول الخمسة تأليف :القاضي ص ٤٥٩

[3] سورة الكهف آية ١٤

[4] علم الكلام وبعض مشكلاته . تأليف أبو الوفا التفتا زاني ص ١٥٦ ، ١٥٧

وهنا نتساءل:

هل يستطيع فكر المعتزلة الحامل لقضية تقديم العقل علىٰ النقل أن ينهض بهذه المهمة الخارقة ؟

وهل يستطيع أن يذيب قضية " لا اجتهاد مع النص " في قضية " هناك اجتهاد في النص " ؟

هل استطاع فكر أهل الحق أن يذكر المعتزلة باستمرار ان الرؤية العقلية مغايرة للرؤية العقدية ؟

هل أفلح أهل الحق في القيام بهذا الفعل الفكري الحقيقي ؟

العجيب أن المعتزلة تؤكد: انها صاحبة قضية وهي " تقديم العقل " .

وأهل الحق يصرحون بأن قضيتهم عادلة – تقديم الشرع- وينبغي ان نؤمن بها لا أن نتعاطف معها فقط .

حينذاك ننطلق لنتأمل فكر المعتزلة في التأويل: ادواته – وسائله – وقضاياه. وموقف أهل الحق منه.

المسألة الثالثة:

التأويـل عـند المعتزلـة

أدواته و وسائله

تشتمل المسألة علي

١ ـ تعريف التأويل لغة و اصطلاحا عند علماء كل فن.

٢ ـ وسائل التأويل وأدواته عند المعتزلة.

التأويل في اللغة و الاصطلاح

اختلف العلماء في معني التأويل والتفسير، ولكن الكثرة علي أن التأويل غير التفسير ، ونرىٰ أن السلف رضوان الله عليهم أجمعين كانوا أميل إلي أن التأويل والتفسير بمعني واحد . ولكن جودة الفكر الإسلامي وفخامته وشدته جعلت بعض السلف يقولون بالتأويل ومن كان يميل إلي التفريق بينهما قدم لنا تأويلات تؤكد أن السلف كان منهم المؤول.

لكن من الحق أن نقول: إن التفسير غير التأويل ولنتأمل ما يدل عليه التأويل في اللغة والاصطلاح من فحوىٰ أخيرة :

أولا : مفهوم التأويل في اللغة :

ورد التأويل في اللغة بمعان متعددة فجاء بمعني التفسير وبمعني الأول أعني الرجوع إلي الأصل وعاقبة الأمر ونهايته.

وبمعني الإيالة ، وبمعني نقل اللفظ من حقيقته إلي مجازه . وإليك البيان ـ في ايجاز شديد ـ .

المعني الأول : التأويل بمعني التفسير :

نقل الأزهري قول الليث : (التأول والتأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه)[1] وقال الجوهري (التأويل تفسير ما يؤول إليه الشيء وقد أوله تأويلا وتأوله)[2]

و قال ابن منظور: وأول الكلام و تأوله: دبره وقدره وأوله وتأوله فسره)[3]

ويعزي هذا المعني اللغوي جانبا من جوانب العلاقة بين التأويل والتفسير وهي: الترادف.

---

[1] تهذيب اللغة .تأليف : الأزهري ج ٥ ص ٣٢٩ تحقيق محمد عوض دار التراث العربي .بيروت ط ١ عام ٢٠٠١ م

[2] مختار الصحاح . تأليف : الرازي مادة : أول ص ٢٥

[3] لسان العرب تأليف : ابن منظور . مادة أول ص ١١ ص٣٣ ، نشر : دار صادر ـ بيروت ط٣ ـ ١٤١٤ هـ

المعني الثاني: التأويل بمعني المرجع و المصير:

يقبض الراغب علي هذا المعني في قوله (التأويل من الأول أي : الرجوع إلي الأصل ، ومنه : المَوئِلُ للموضع الذي يرجع إليه ، وذلك هو رد الشيء إلي الغاية المرادة منه)[1]

وقال الأزهري (التأويل والتفسير، واحد قلت: ألت الشيء جمعتهُ وأصلحته، فكان (التأويل) جمع معان مشكلة بلفظ واضح لا إشكال فيه ، وقال ... أول الله عليك أمرك: أي جمعه)[2]

وقال ابن منظور: التأويل (هو من آل الشيء يؤول الي كذا أي رجع وصار اليه)[3]

وقال الفيروزآبادي التأويل: (اشتقاقه من الأول وهو الرجوع ، فيكون التأويل بيان الشيء الذي يرجع إليه معني الآية و مقصودها) [4]

من هنا يلوح لفظ التأويل بمعني المرجع والمصير (فالتأويل ابداء عاقبة الشيء، واشتقاقه من المآل بمعني المرجع والعاقبة فتأويل الآية ما تؤول إليه من معني وعاقبة

وقيل: اشتقاقه من لفظ الأول وهو صرف الكلام إلي أوَّله ، وهذان القولان متقاربان . ولهذا قيل : أول غرض الحكيم آخر فعله)[5]

ولعله قد بات واضحا أن التأويل مأخوذ من الأول وهو الرجوع واللفظة أيضا تمتلك الرؤية الواضحة لأنا نفهم أن التأويل بمعني إرجاع اللفظ أو الآية إلي ما تحتمله من المعاني.

المعني الثالث : التأويل بمعني الإيالة أعني السياسة يقال هنا : إن التأويل مأخوذ من الإيالة ، وهي السياسة ويقال أيضا ، كأن المؤول للكلام يسوس الكلام ويضع

---

[1] المفردات في غريب القرآن . تأليف : الأصفهاني ص ٩٩ . نشر دار القلم ـ بيروت الطبعة الاولي ١٤١٢ هـ

[2] تهذيب اللغة . تأليف : الأزهري ج ١٥ ص ٣٢٩

[3] لسان العرب . تأليف : ابن منظور. مادة أول ج ١١ ص ٣٣

[4] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . تأليف : الفيروز أبادي ج١ ص ٧٩ ، تحقيق : محمد علي النجار

[5] المرجع السابق ج ١ ص ٧٩

المعني فيه موضعه ، ونحب أن نؤكد أن هذا ما ذهب إليه علماء اللغة وهذا ما يعنينا.

يقول الزمخشري: (آل الرعية يؤولها آيالة حسنة ، وهو حسن الإيالة ، وأتالها وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم أي سائس محتكم)[1]

وقال الفيروزآبادي (وقيل اشتقاقه من الإيالة بمعني السياسة تقول العرب: (ألنا وإيل علينا) أي سسنا وسيس علينا ، أي ساسنا غيرنا ، وعلي هذا يكون معني التأويل أن يسلط المؤول ذهنه وفكره علي تتبع سر الكلام إلي أن يظهر مقصود الكلام ويتضح مراد المتكلم)[2]

يتضح من خلال القراءتين ـ الزمخشري والفيروز أبادي ـ وليس من خلال قراءة واحدة أن (المؤول يسوس الكلام ، ويضعه في معناه اللائق به)[3]

المعني الرابع: التأويل بمعني نقل اللفظ من حقيقته إلي مجازة هكذا يقول ابن منظور (والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلي ما يحتاج إلي دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ)[4]

ومنه قولة تعالي (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)[5] ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم أغفر لي ، يتأول القرآن تعني : أنه مأخوذ من قوله تعالي (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ)[6] وقال الآمدئ : يقال تأول فلان الآية الفلانية ، أي نظر إلي ما يؤول إليه معناها)[7]

ونخلص مما سبق علي ضوء ما بدأنا به من تعريف التأويل لغة إلي أن التأويل له

---

[1] أساس البلاغة. تأليف : الزمخشري ج١ ص ٣٩ نشر دار الكتب العلمية . بيروت لبنان ط ١ عام ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م

[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . تأليف: الفيروز ابادي ج ١ ص ٨٠

[3] الموسوعة القرآنية المتخصصة. تأليف : جعفر شرف الدين ج ١ ص ٢٤٣

[4] المرجع السابق . ج ١ ص ٢٤٣

[5] لسان العرب. تأليف ابن منظور. مادة أول ج ١١ . ص ٣٣

[6] سورة النصر آية ٣

[7] الموسوعة القرآنية المتخصصة . تأليف : جعفر شرف الدين ج ١ ص ٢٤٣

معان عددناها ولكن يجب أن ننبه إلي أن المعتزلة قد اعتمدت علي معني واحد للتأويل وهو ـ نقل اللفظ من حقيقته إلي مجازة ـ حتىٰ أوجعتنا تماما بتأويلاتها المخالفة لآهل الحق ـ الأشاعرة و الماتريدية ـ وسر ذلك ينطلق من أنها تستدل ومعها سندها من اللغة العربية التي أدركت أسرارها ونلاحظ أن المعتزلة عندما اكتفت من التأويل بنقل اللفظ من حقيقته إلي مجازه . هنا تشتبك تأويلات المعتزلة مع الضوابط الضرورية ـ التي وضعها أهل الحق للتأويل ـ في أكثر من جهة .

التأويل في الاصطلاح :

اذا كان التأويل قد استلهم معانيه المتعددة من تعدد ورود اللفظة في القران الكريم والسياق الذي ترد فيه فإننا نعود إلي مفكري الإسلام نستثيرهم ونستشيرهم معا . لنعرف المقصود بالتأويل عندهم.

يخطئ من قد يظن أن التأويل في الاصطلاح بمعني واحد فقد (تعددت المفاهيم الاصطلاحية للتأويل تبعا لاختلاف المذاهب الفكرية والعقدية ، فقد ورد التأويل بمعني التفسير عند "النافين للمجاز"[1] ، وورد بمعني صرف اللفظ عن ظاهره إلي معني آخر من المعاني التي يحتملها اللفظ ، وذلك عند المثبتين للمجاز ، وورد بمعني صرف اللفظ عن ظاهره إلي معني أخر، لكن هذا المعني الآخر مصدره الإمام المعصوم الذي يعرف أسرار الدين الحقيقية المستودعة عنده)[2]

وهذا عند "الفرق الباطنية"[3] والذي يعنينا من هذا كله بيان مفهوم التأويل عند

---

[1] نفي المجاز "أوقع ابن تيميه في مضايق وألزمه المعاني الحسية . يقول إمام الحرمين " إنهم يطلبون ربهم في المحسوسات ـ انظر أساس تقديس للرازي ص ١٣ ، ١٤ وما بعدهما ط كردستان العلمية ، القاهرة ١٣٢٨ هـ

[2] مسائل العقيدة بين التفويض والإثبات. والتأويل. تأليف: الأستاذ الدكتور عبد العزيز سيف النصر ص ٦٢

[3] يقول البغدادي في الفرق بين الفرق (٣٨٢) : " اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية علىٰ فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارىٰ والمجوس عليهم، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم"، فالباطنية ليست مذهبا إسلاميا أو فرقة من فرق أهل الإسلام، وإنما هي مذهب وطريقة أراد بها واضعوها هدم الإسلام وإبطاله عقيدة وشريعة، كما ذكر ذلك الإمام الغزالي في كتابه "فضائح الباطنية" ـ انظر الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم تأليف أبو منصور عبد القاهر بن طاهر

مدعي السلفية وعند المفسرين ، وعند علماء الكلام.

أولا : التأويل عند مدعي السلفية : كما صوره ابن تيمية ومدرسته

يتجسد الحس العقدي في وضوح المفهوم المحوري في قضية التأويل عند السلف فهو:

الأول: بمعني التفسير و البيان

الثاني: بمعني المآل والعاقبة و المصير

فالأول يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم

و الثاني لا يعلمه إلا الله وحده

أما التأويل بمعني صرف اللفظ عن ظاهره فيزعم ابن قيم الجوزي ان السلف ترفضه ويؤيدهم ابن القيم بقوله: (وضع الكلام للدلالة علي مراد المتكلم ، ولما كان مراده لا يعلم إلا بكلامه انقسم كلامه ثلاثة أقسام :

أحدها : ما هو نص في مراده لا يقبل محتملا غيره.

الثاني : ما هو ظاهر في مراده وإن احتمل أن يريد غيره .

الثالث: ما ليس بنص ولا ظاهر في المراد بل هو محتمل محتاج إلي البيان.

فالأول: يستحيل دخول التأويل فيه، إذ تأويله كذب ظاهر علىٰ المتكلم وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها خصوصا آيات الصفات والتوحيد... فهذا القسم إن سُلط التأويل عليه عاد الشرع كله مؤولا لأنه أظهر الأقسام القرآنية ثبوتا وأكثرها ورودا، ودلالة القرآن علية متنوعة غاية التنوع فقبول ما سواه للتأويل أقرب من قبوله بكثير)[1]

ويمكن أن نلاحظ مما سبق أن التأويل المرفوض هو صرف اللفظ عن ظاهره والتأويل الذي يصح أن يوصف بالسلفي ـ كما يدعي ابن قيم الجوزية ـ هو الذي

= البغدادي ص ٩٧بيانات النشر: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا . محمد محيىٰ الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (١٤١٦هـ-١٩٩٥م).

[1] مختصر الصواعق المرسلة . تأليف : ابن القيم ج ١ ص ٥١ ، ٥٢

يوافق ما دلت عليه النصوص، وجاءت به السنة.

ويقبض ابن القيم علي التأويلات الباطلة في قوله : (١ـ ما لم يحتمله اللفظ في أصل وضعه كتأويلهم الأحد بأنه الذي لا يتميز منه شيء ألبته ، فإن مثل هذا التأويل لم يكن معروفا في لغة العرب

٢ـ ما لم يحتمله اللفظ بحسب التركيب الخاص من تثنية أو جمع وان احتمله مفردا كتأويل "لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ" بأن اليدين هما القدرة أو النعمة

٣ ـ مالم يحتمله سياقه وتركيبه وإن احتمله في غير ذلك السياق كتأويلهم (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ)[1] بأن اتيان الرب (اتيان بعض آياته التي هي أمره ونهيه وهذا يأباه السياق كل الإباء فإنه يمتنع حمله علي ذلك التقسيم والتنويع و الترديد وهل يبقي مع هذا السياق شبهة أصلا أنه إتيان بنفسه ؟!

٤ ـ تأويل اللفظ بمعني لم يدل عليه دليل من سياق ولا قرينة تقتضيه ، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه ، إذا لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل علي المعني المخالف لظاهره . حتىٰ لا يوقع السامع في اللبس...

٥ـ مالم يؤلف استعمال في ذلك المعني في لغة المخاطب وإن ألف في الاصطلاح الحادث ، كتأويل لفظ الأفول في قوله تعالي (فَلَمَّا أَفَلَ)[2] بالحركة، هذا لم يعرف في لغة العرب)[3]

وابن تيمية ومدرسته يرون أن الفكر الإسلامي ينبغي أن ينأىٰ بنفسه عن التأويل الباطل فقد (أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين والحرة وفتنة "ابن الزبير" وهلم جرا بالتأويل، وما الذي سفك دم أمير المؤمنين "عثمان بن عفان " ظلما وعدوانا وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتىٰ الآن غير التأويل)[4] فإذا تجاوزنا هذا

---

[1] سورة الأنعام آية ١٥٨

[2] سورة الأنعام آية ٧٦

[3] مختصر الصواعق المراسلة . تأليف : ابن القيم ج١ ص ١٤ ، ١٥ بتصرف

[4] أعلام المرقعين. تأليف : ابن القيم ج ٢ ص ٢٥١

الجانب التاريخي من الفكر الإسلامي فإننا نجد المقولة الأتية لابن قيم الجوزية تصور معتقده ـ ومعتقد شيخه ابن تيمية ـ في وضوح وإيجاز وتركيز يقول الرجل: (ندين بالقدر ، وإن سمي جبرا، وندين بإثبات الصفات وحقائق الأسماء وإن سمي تجسيما، وندين بإثبات وجهه الأعلىٰ ، وندين بإثبات علو الله تعالي علي عرشه فوق سماوته وإن سمي تركيبا وندين بإثبات أنه متكلم حقيقة كلاما يسمعه من يخاطبه وأنه يري بالأبصار عيانا حقيقة يوم القيامة وإن سمي تشبيها)[1]

ومهما يكن من شيء فقد ظل فكر ابن تيمية وجماعته علي إثارته لنوع من الجدل الفكري باقتحامه لفكر السلف الصالح وتجسيد موقفهم العقدي في صورة ربما لا يتفق معه فيها (كثير من المفكرين)[2] وحسبه أنه يثير مثل هذه التفجيرات الفكرية.

ولكن من الحق أن يقال:

أولا:ـ السلف الصالح ـ أصحاب القرون الثلاثة الأولي ـ الصحابة والتابعين ومن تبعهم ـ لم يكن لهم مذهب عقدي ولكن من جاء بعدهم قعدوا لهم . وبينوا أن منهجهم هو التفويض إزاء النصوص الموهمة للتجسيم والتشبيه .

ثانيا: التأويل بمعني (صرف اللفظ من حقيقة إلي مجازه)[3] جعل الإمام أحمد ناقل منهج السلف الصالح يصرح في دقة ووضوح بالتأويل في "الصفات الخبرية"[4]

---

[1] مدارج السالكين . تأليف : ابن القيم ج ٣ ص ٢٥٨ ج ١ والسنة المحمدية عام ١٩٥٠

[2] موقف السلف من المتشابهات بين المثبتين والمؤولين . دراسة نقدية لمنهج ابن تيمية للأستاذ الدكتور القوصي ص ٢٥

[3] يرىٰ ابن تيمية أن التأويل عند السلف بمعنى التفسير وبمعنى المآل والعاقبة يؤيد ذلك قولة تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) سورة النساء ٥٩ والواقع أن التأويل هنا بمعنى الثواب والجزاء والعاقبة ... لأن الثواب مآل الطاعة ـ وقوله تعالى (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) يونس ٣٩(كَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) يوسف٦ (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) يوسف ٣٩ ويري الشيخ أبو زهرة أن التأويل بمعني التفسير ـ راجع كتاب موقف السلف من المتشابهات بين المثبتين والمؤولين للدكتو القوصي ص ٣٢.

[4] تنقسم الصفات الخبرية إلىٰ قسمين:

وهو أحد دعاة المنهج السلفي بل ناقله إلينا بل يعد المفكر الأوثق في مواصلة الاتجاه في طريق السلف يقول الأمام أحمد في (موقف السلف من الصفات امرارها علىٰ ما جاءت من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة كقوله تعالىٰ (وَجَاءَ رَبُّكَ) أي جاء أمره (وهذا مذهب السلف)[1]

هل نعتذر بهذه الوضعية ـ تصوير ابن تيمية وجماعته لمنهج السلف ـ عن معاناة الفكر الإسلامي تحت شرط التأويل بمعني التفسير أو المآل فقط لنتساءل .

هل تخلي ابن تيمية وجماعته عن التأويل الذىٰ بمعني نقل اللفظ من حقيقته إلي مجازة .

والجواب بالنفى القاطع . وعلى سبيل المثال لا الحصر تأويل ابن تيمية قوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[2] وقوله تعالي (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ)[3]

وقال وسياق الآيتين يدل علي أن المراد الملائكة)[4]

وهكذا يؤول تلميذه ابن قيم الجوزية عند مخاطبة الصوفية بقوله (وأما ما ذكرتم من القرب : فإن أردتم عموم قربه إلي كل لسان من نطقه وإلي كل قلب من قصده فهذا ـ لو صح ـ لكان قرب قدرة ! وعلم ! و احاطة ! لا قربا بالذات والوجود، فإنه سبحانه لا يمازح خلقه ، ولا يخالطهم ولا يتحد بهم ... وإن أردتم القرب الخاص إلي اللسان والقلب فهذه المحبة وقرب الرضا، والأنس، كقرب العبد من ربه وهو ساجد فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالي (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ

= صفات ذاتية: وهي التي تكون لازمة للذات أزلا وأبدا لم يزل تعالىٰ ولا يزال موصوفا بها و صفات فعلية: ترجع إلىٰ مشيئته تعالىٰ وقدرته كصفة الاستواء والنزول والإتيان والمجيء... أنظر الإبانة لأبي الحسن الأشعرى، ص: ٢١

[1] من تراث الكوثرى . دفع شُبه من شَبه وتمرد ونسب ذلك إلىٰ الامام احمد ص٣٥ تصنيف . الحصني الدمشقي. الناشر المكتبة الأزهرية .٢٠١٤ م ١٤٣٥ هـ

[2] سورة ق آية ١٦

[3] سورة الواقعة آية ٨٥

[4] مجموع الفتاوىٰ . تأليف : ابن تيمية ج ٥ ص ٥٠٥

بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[1]

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس:

أحدهما : أن قربه بعلمه ، ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الانسان.

والقول الثاني: أن قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلي قلبه، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق)[2]

ونتوجه إلىٰ ابن تيمية وجماعته لنؤكد لهم بطلان القول بأن السلف لم يؤولوا ، وأن التأويل واقع لا محالة . ومن السهل أن ندلل علىٰ مدعانا بمثال واحد .

انكرتم – ابن تيمية وجماعته – كون اليد بمعنىٰ القدرة في قوله تعالىٰ (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[3]

فهل معنىٰ اليد هنا الجارحة المحسوسة التي نعلمها ؟ ! والجواب بالنفي القاطع . إذن هذا هو: " صرف اللفظ من معناه الحقيقي إلىٰ... " وهذا هو التأويل بعينه.

ثالثا: ومع ما في التأويل عند المعتزلة و الفلاسفة، والشيعة والباطنية.. إلخ من تزايد فإن التأويل عند أهل الحق ضرورة .

بل تنحل أزمة التأويل حين نتوجه إلي الضوابط الضرورية التي وضعها أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ للتأويل ويبدو موقفنا من أهل التأويل الباطل أشهر من أن يعرف ، وكان سبب اختيار موضوع بحثنا ـ التأويل عند المعتزلة ... أنني أعرف أن التأويل الباطل قد حَمل علي النص والفكر الإسلامي ما لم يريداه وكان اختيارنا للمعتزلة لأنهم الأقرب إلي جوهر الإبداع الحقيقي...

التأويل في اصطلاح المفسرين:

قد وفر تفسير القرآن العظيم لعلمائه ملامح التفرد في هذه القضية معني التأويل وسنقر لهم بالتقدم علينا في بيان معانيها ولن ننازعهم شيئا. لأن التفسير محكوم

---

[1] سورة ق آية ١٦

[2] مدارج السالكين . تأليف : ابن قيم الجوزية ج٢ ص٢٧٥ ط ١ درا الكتاب العربي ط ١٤١٦٣ هـ

[3] سورة الفتح آية ١٠

بشروطهم التي التزموا بها . ومن تعدد الفهم علي مقتضي منطق العصر وهو ما تحقق فقالوا اولا :(أن التأويل مرادف للتفسير ، وعلي هذا فالنسبة بينهما التساوي وهذا المعني هو الشائع عند المتقدمين ، ومنه قول مجاهد : إن العلماء يعلمون تأويله، يعني القرآن ، وقول ابن جرير ... مراده التفسير)[1]

ثانيا : (النسبة بين التفسير والتأويل ، هي العموم والخصوص فقط ، وجعل التفسير أعم مطلقا ، كأن يريد من التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل ، أي المعاني التي يحتملها اللفظ ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقا ، فهو أعم من أن يكون بالمتبادر من اللفظ أو بغير المتبادر)[2]

ثالثا : (التفسير مباين للتأويل ، فالتفسير هو القطع بأن مراد الله كذا، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع ، وهذا قول الماتريدي)[3]

ويبقي أن نقول إن (التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية، والتأويل بيان الفظ عن طريق الدراية. أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة و التأويل هو بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة وقد اشتهر هذا عند المتأخرين)[4]

وامتلاك لفظة التأويل لكل هذه المعاني عند المفسرين تجعلنا نقول : إنها آراء تقبل المناقشة ، وتتسع لمزيد من الحوار ، وما أكثر ما يحتمل فكر المفسرين من تأمل واستقصاءات واجتهادات . ولكن مبررنا للقول بأن (التفسير يرجع إلي الرواية والتأويل يرجه إلي الدراية والاستنباط) ما ذهب إليه أهل الحق في قولهم: (التفسير كشف وبيان عن مراد الله، والكشف عن مراد الله لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أو عن الصحابة الذين شهدوا نزول الوحي ، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع وخالطوا رسول الله صلي الله عليه وسلم ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم ، أما التأويل فملاحظ فيه ترجيح أحد محتملات

---

[1] التفسير والمفسرون . تأليف : الدكتور محمد السيد حسين الذهبي ج ١ ص ١٥ تشر مكتبة وهبه القاهرة

[2] المرجع السابق . ج ١ ص ١٥

[3] مناهل العرفان في علوم القرآن . تأليف: الزرقاني ج ٢ ص ٥ ط مطبعة عيسي الحلبي ط ٣

[4] المرجع السابق ص٥

اللفظ بالدليل ، وهذا الترجيح يعتمد علي الاجتهاد)[1]

التأويل عند المتكلمين :

نعرف مدارس علم الكلام وفرغنا أنفسنا لملاحقة فكرهم في كل اتجاه ، وأوغلنا في تعقب مدراسهم .

مما يؤكد أن فكرنا صادر عن معايشة حقيقية ، وليس مجرد تقليد ساذج لنماذج الموروث . ونؤكد أن الفكر الاعتزالي ينطوي علي أفكار متميزة ، وبخاصة في مستواها العقلي الذي لا نبحث فيما وراءه عن معني أو مثال إلا عند أهل الحق ـ الأشاعرة والماتريدية ـ وقد قادنا هذا الأن لنصوغ فكر مدارس المتكلمين في قضية التأويل صياغة تجمعهم في إطار واحد وأن اختلفوا في التطبيق.

والتأويل عند جل علماء الكلام هو : صرف اللفظ من حقيقته إلي مجازه لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعني الحقيقي، وان اختلفوا في التطبيق. ويتضح ذلك فيما يلي :

أولا : التأويل عند أهل السنة ـ الأشاعرة والماتريدية ـ

إن هذا الذي كنا ندور عليه في الفكر الإسلامي ونرىٰ أن ما أخطأته المدارس الكلامية أصابته الاشاعرة والماتريدية علي أن نفهم هنا أن التأويل عندهم (صرف اللفظ من المعني الراجح إلي المعني المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا التأويل هو المستخدم في أصول الفقه . ومسائل الخلاف وعلم الكلام. وقد عرف أبو منصور الماتريدي التأويل بأنه ترجيح أحد المحتملات بدون قطع)[2]

وقد قاد الإمام الغزالي هذا الاتجاه الفكري بوضوح في قوله: (التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب علي الظن من المعني الذي يدل عليه الظاهر ويشبه أن يكون كل تأويل صرف اللفظ عن الحقيقة إلي المجاز، وكذلك تخصيص

---

[1] تفسير الماتريدي : تأويلات أهل السنة ج١ ص ١٨٥ تحقيق مجدي بأسلوب نشر دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م

[2] مسائل العقيدة بين التفويض والإثبات والتأويل. تأليف :الاستاذ الدكتور عند العزيز سيف النصر ص ١٥٥ .

العموم برد اللفظ عن الحقيقة إلي المجاز ، فإنه إن ثبت أن وضعه وحقيقته للاستغراق فهو مجاز في الاقتصار علي البعض . فكأنه رده إلي المجاز، إلا أن الاحتمال تارة يقرب وتارة يبعد، فإن قرب كفي في إثباته دليل قريب ، وإن لم يكن بالغا في القوة. وإن كان بعيدا افتقر إلي دليل قوي بجبر بعده حتىٰ يكون ركوب ذلك الاحتمال البعيد أغلب علي الظن من مخالفة ذلك الدليل. وقد يكون ذلك الدليل قرينة. وقد يكون قياسا وقد يكون ظاهرا آخر أقوي منه)[1]

ونستطيع أن نقول إن حجة الإسلام يصل بالتأويل إلي قلب المحور الذي يتغياه ، ويقفنا علي حقيقته حين يرفض حبس اللفظ ـ التأويل ـ في معني التفسير فيبين أن التأويل " يشبه أن يكون صرفا للفظ من الحقيقة إلي المجاز ، وحتىٰ يكون التأويل صحيحا لابد له من دليل يقويه ويؤكد جدارة هذا المعني الآمدىٰ في قوله (التأويل المقبول الصحيح هو حمل اللفظ علي غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده ... وإذا عرف معني التأويل فهو مقبول معمول به إذا تحقق مع شروطه ، ولم يزل علماء الأمصار في كل عصر من عهد الصحابة إلي زمننا عاملين به من غير نكير)[2]

وعلي ضوء ما سبق نقول : كان جل هم الصفحات السابقة قراءة البعد الأخر للتأويل عند مدارس واتجاهات فكرية عديدة وعند أهل الحق ربما لنوفق إلي المدخل الحقيقي للتأويل لأن مدلولات هذا اللفظ ـ التأويل ـ طرأ عليها تغيير تاريخي ، وربما كان للتأكيد علي أن التأويل الذي تجاوز هموم العصر هو تأويل أهل الحق لنحكم علي التأويل الاعتزالي وفي أيدينا الميزان .

---

[1] المستصفىٰ . تأليف : ابو حامد الغزالي تحقيق محمد عبد السلام عبد الشامي ص ١٩٦ دار الكتب العلمية ط١ الأول ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م

[2] الإحكام في أصول الأحكام. تأليف :الأمدىٰ ج١ ص ٥٣ المقدمة ت المكتب الاسلامي بيروت

وسائل التأويل وأدواته عند المعتزلة

نري أن المعتزلة ترتقي في الصناعة اللغوية مرتقىٰ عظيما ومن ثم كانت " اللغة " واحدة من أداتي التأويل ووسائله عندها

أما الأداة الأخرىٰ: فهي " العقل " وهم مجبولون علي هذه الصناعة الفكرية ـ المنطق والفلسفة ـ ولهم مزايا التفكير المنطقي والفلسفي وعيوبه في آن.

وقبل الولوج في بيان أدوات ووسائل التأويل الاعتزالي نقول:

تجعل المعتزلة من أداتي التأويل ووسائله وحدة مترابطة ولهذا فإن تساند اللغة والعقل عند المعتزلة تساند سببي أو مجرد ترميم لمعني مستقل ليجعل الفكر الاعتزالي يبدو متماسكا لغة وعقلا. ولنبدأ الآن في الحديث عن أدوات ووسائل المعتزلة .

أولا: " اللغة " الحقيقة، والمجاز:

نحن هنا مع معتزلة تمتلك الرؤية الواضحة لأسرار اللغة العربية وتتكئ في تأويلاتها علي قضية " الحقيقة والمجاز"[1]

هكذا يقول القاضي عبد الجبار وغيره إن القرآن الكريم إنما أدخل في باب الإعجاز حين استعمل طريقة العرب في أسلوبه "فجاء بالكناية و الاستعارة والمجاز"[2] وهي مقولة ترددت في سائر الكتابات التي تناولت قضية التأويل عند

---

[1] العلاقة بين اللغة والدين لا تقصر علي الحقيقة والمجاز فهناك المحكم والتشابه والظاهر والباطن وما يندرج تحت كل هذه العلاقات من تفصيلات عديدة .

[2] الكِنَايَةُ : تعبير أُريد به غيرُ معناه الذي وُضِع له من جواز إرادة المعنىٰ الأصليّ ا.

والاستعارة : اسْتِعْمالٌ مَجازِيٌّ لِمَعْنىً خاصٍّ بِكَلِمَةٍ لِمَعْنَىٰ آخَرَ علىٰ وَجْهِ الْمُشابَهَةِ .

و المجـــاَز :ينقسم الكلام باعتبار استعمال ألفاظه إلىٰ حقيقة ومجاز ، فإذا استعمل اللفظ فيما وضع له أصلا فتلك حقيقة ، كقولنا : أشرقت الشمس .أما المجاز اللغوي فهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له أصلا لعلاقة وقرينة تمنع من إرادة المعنىٰ الحقيقي ، ففي قولنا "فلان يتكلم بالدرر "نجد أن كلمة الدرر مستعملة استعمالا مجازيا لأنها وضعت في الأصل لتعبر عن اللآليء الحقيقية ، ثم نقلت إلىٰ الكلمات الفصيحة لعلاقة المشابهة بينهما في الحسن والجمال والتأثير في النفس ـ انظر القاموس المحيط للإمام اللغوي مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروز آبادي ص١١٧

المعتزلة يقول القاضي: (إن الله تعالي أراد أن يكون القرآن الكريم في أعلي طبقات الفصاحة ليكون علما دالا علي صدق النبي صلي الله عليه وسلم ، وعلم أن ذلك لا يتم بالحقائق المجردة . وأنه لابد من سلوك طريقة التجوز و الاستعارة ، فسلك تلك الطريقة ليكون أشبه بطريقة العرب ، وأدخل في الاعجاز)[1]

هذه الوضعية اللغوية تظفر بها المعتزلة وفكرها من خلال تصريح بعض الصحابة بأن (للقرآن الكريم وجوها)[2]

وهكذا يتبدئ حس القبض علي قضية تؤمن بها المعتزلة وتؤكدها اللغة – المجاز– كما يتبدئ اغراق المعتزلة للتأويل في تهاويل لغوية باذخة . لآن جل همها أن تصل إلي قلب العقلانية بمزايدات ترئ فيها أن أكثر لغة العرب من قبيل المجاز لا الحقيقة، ولهذا قسم اللغويون الكلام إلي حقيقة ومجاز ، وتناولوا وجوه المجاز وضروبه ، والقرآن الكريم أخبرنا بأنه نزل بلغة العرب ، بل تري المعتزلة أن القرآن الكريم في أعلي دراجات البلاغة حين استعمل وجوه المجاز في أسلوبه لذلك كان المجاز من أهم دلائل إعجاز القرآن الكريم وليس هذا بمستغرب لأننا نري أن المجاز " في القرآن الكريم " لانت له قلوب قريش وأحبوا الإسلام وأمنوا به " ومعروف أن الفكر اللغوي القديم والحديث يضع المجاز ـ في القران الكريم ـ من أسرار ودلائل إعجازه. ولكن المشكلة أن المجاز، والاستعارة، والكناية و... كان مدعاة لاختلاف العلماء حول معاني كثير من الآيات.

ولم ينج من هذا الخطأ إلا من امتلك ناصية اللغة ، والبيان ، وعلم ما يحيط بالتنزيل من قرائن وأحوال .

---

[1] شرح الأصول الخمسة. تأليف : قاضي القضاة . عبد الجبار بن أحمد ص ٦٠ حققه وقدم له عبد الكريم عثمان . نشر مكتبة هبة ١٩٦٥م ١٣٨٤ هـ

[2] أخرج بن سعد في الطبقات الكبرئ عن أبي قلابة أن أبا الدرداء كان يقول : " إنك لن تفقه كل الفقه حتئ ترئ للقرآن وجوها " أنظر في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة محمود خفاجي ص ١١٥ مطبعة الأمانة ١٩٧٩ .

وبدهي أن ذلك كان في الصدر الأول حين " تحدي الله تعالي العرب "[1] في أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة ثم بدأ اللسان الأعجمي يدخل علي العربية الفصحىٰ .

فوقع اللحن والخطأ لهذا وضع العلماء للمفسر شروطا يقول القاضي عبد الجبار (لا يكفي في المفسر أن يكون عالما باللغة العربية، ما لم يعلم معها النحو، والرواية، والفقه الذي هو العلم بأحكام الشريعة وأسبابها... عالم بأصول الفقه التي هي أدلة الفقه ، الكتاب، والسنة ، والإجماع والقياس والأخبار ، وما يتصل بذلك ، ولا يكون عالما بهذه الأحوال إلا وهو عالم بتوحيد الله تعالي ، وعدله ، وما يجب له من الصفات ، وما يصح ، وما يستحيل ، وما يحسن منه فعله ، وما لا يحسن بل يقبح .

فمن أجتمع فيه هذه الأوصاف، وكان عالما بتوحيد الله ، وعدله ، وبأدلة الفقه وأحكام الشرع . وكان بحيث يمكنه حمل المتشابه علي المحكم والفصل بينهما جاز له أن يشتغل بتفسير كتاب الله تعالي . ومن عدم شيئا من هذه العلوم فلن يحل له التعرض لكتاب الله جل وعز)[2]

وقد نجا الفكر الإسلامي من محنة ابن تيمية ومدرسته حين أعطي للمجاز مذاقا يدل علي أنه من أسرار بلاغة القران الكريم .

يقول ابن قتيبة : (وأما الطاعنون علي القرآن بالمجاز فإنهم زعموا : أنه كذب، لآن "الجدار لا يريد " [3] ، و"القرية لا تسأل "[4] ، وهذا من أشنع جهالاتهم ، وأدلها علي سوء نظرهم ، وقلة أفهامهم فلو كان المجاز كذبا، كان كل فعل ينسب إلي غير الحيوان باطلا ، وكان أكثر كلامنا فاسدا لآنا نقول : " نبت البقل "وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، ورخص السعر إلخ .

---

[1] القرآن الكريم في تحديه للعرب في أن يأتوا بمثله أو ... أثبت لهم قوة الفصاحة والبلاغة والبيان ـ لآن القران الكريم لا يتحدىٰ إلا قويا .

[2] شرح الأصول الخمسة . تأليف : القاضى عبد الجبار ص ٦٠٦ ، ص ٦٠٧

[3] إشارة إلي قوله تعالي (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ) الكهف : ٧٧

[4] إشارة إلي قوله تعالي (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) يوسف: ٨٢

والعرب تقول: بأرض فلان شجر صاح، أي طال، لأنه يدل علي نفسه بطوله كأنه صائح، لأن الصائح يدل علي نفسه بصوته)[1]

ويؤكد ابن قتيبة ـ وجل العلماء ـ علي وجود المجاز في القرآن الكريم وكلام العرب بقوله (وفي كتاب الله كثير من مثل هذا كقوله تعالي (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ)[2] وإنما يعزم عليه ، وقولة تعالى(فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ)[3] و انما يربح فيها ، وقوله تعالي (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ)[4] وإنما يكذب به .

وأنشد السجستاني :

يريد الرمح صدر أبىٰ براء *** ويرغب عن دماء بني عقيل)[5]

ونؤكد علي أن جل العلماء في ردهم علي ابن تيمية وجماعته ـ في انكار المجاز ـ كانوا موزعين بين مفهوم الإخلاص للفكر الإسلامي الذي يؤكد وجود المجاز في النصوص الشرعية وفي لغة العرب ، وبين مفهوم الالتزام بالفكر الصحيح كموقف عقدي يجب أن نناضل تحت رايته ذبذبات الجموح في الفكر الإسلامي عند ابن تيمية وجماعته خصوصا في قضية الصفات .

ونفي ابن تيمية ـ وجماعته ـ للمجاز أتاح للعلماء الرد علىٰ الرجل الذي ينكر المجاز (بحجة أن المجاز فيه تلبيس علىٰ الناس وأنه قول محدث لم يقل به أحد من السلف ، ولم توجد إشارة إليه في تراث المتقدمين جميعا من لغويين و نحاة ، كالخليل ابن أحمد ، وسيبويه وغيرهما وأن أول من عرف عنه أنه تكلم بلفظ المجاز

---

[1] تأويل مشكل القرآن . تأليف : ابن قتيبة ص ١٢٣ ط الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

[2] إشارة إلي قولة تعالي (طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ) محمد: ٢١

[3] إشارة إلي قوله تعالي (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) البقرء : ١٦

[4] إشارة إلي قولة تعالي (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) يوسف : ١٨

[5] تأويل مشكل القرآن . تأليف : ابن قتيبة ص ١٣٣

هو أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ ، في كتاب " مجاز القرآن " وذلك بعد القرون الثلاثة الأولي للهجرة)[1]

والحركة النقدية عند جل العلماء تستدرك علي. ابن تيمية هذا الانكار ، وحول طبيعة المجاز يقول " البطليوسي"[2] (وإنما كلامنا فيه ـ المجاز ـ علي مذهب من أثبته ، لأنه الصحيح الذي لا يجوز غيره ، والمجاز ثلاثة أنواع :

١. نوع يعرض في موضوع اللفظة
٢. ونوع يعرض في أحوالها المختلفة عليها من إعراب وغيره.
٣. ونوع يعرض في التركيب وبناء بعض الألفاظ علي بعض)[3]

ويمكن ضرب الأمثلة لهذه الأنواع المجازية من خلال النصوص الشرعية وكلام العرب وفي ايجاز شديد نقول : مثال النوع الأول ـ نوع يعرض في موضع اللفظة ـ مثل قوله تعالي (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)[4]

سمي المطر لباسا إذ كان سبب ذلك ومن كلام العرب السلسلة فإن العرب تستعملها حقيقة وتستعملها مجازا بمعني : الإخبار ، والإكراه ، كقوله صلي الله عليه وسلم : " عجبت لقوم يقادون إلي الجنة بسلاسل" .

ـ وأيضا بمعني: ما تتابع بعضه في إثر بعض واتصل: كقولهم: تسلسل الحديث.

أما النوع الثاني:ـ الحقيقة والمجاز العارضان.

فمثاله قوله تعالي: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)[5] أي مكركم في الليل والنهار.

والعرب تقول: نهارك صائم، وليلك قائم.

أما النوع الثالث :ـ نوع يعرض في التركيب وبناء بعض الألفاظ علي بعض وأنواعه عديدة نذكر منها :

---

[1] كتاب الإيمان . تأليف : ابن تيمية ص ٧٥ ، ٧٦ ط ١ تعليق الدكتور محمد خليل هراس

[2] أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي الأندلسي ٥٢١هـ ، صاحب كتاب الانصاف في التنبيه علي الأسباب التي أوجبت الخلاف .ذكر وجوه عديدة، منها الخلاف العارض من جهة الحقيقة والمجاز.

[3] تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفي عبد الرازق ص ١٨٢

[4] سورة الأعراف آية ٢٦

[5] سورة سبأ أية ٣٣